محيي الدين صبحي

الادب والمستقبل العربي

خطوط ... وملامح

الادب والمستقبل العربي ، المستقبل العربي والادب ، الادب العربي المستقبلي ، مسميات كلها بمعنى . واخشى من القول ان افتتحت الكلام بالقول ان ادبنا ما لم يكن ادب المستقبل فلن يكون عربيا قط .

لا اقصد بهذا معنى الخلود الادبي او اي معنى يستشرف الابد. اقصد فقط ان الادب الحالي المكتوب باللغة العربية يجب ان يحمل في ثناياه ملامح المستقبل العربي المنشود ، اذا اراد ان يحمل هوية قومية.

الادب الذي يحمل هوية قومية هو وحده ادب المستقبل . اي الادب المرشح لامرين :

ان يعيش بعد صاحبه ، وان يفعل فعلا يغير الواقع .

هنا يجب التوقف قليلا لتحديد مدى فاعلية الانفاظ ، تحديد مجال عملها ـ مما سيحدد بالضرورة مدلولاتها .

لدينا اربع كلمات تستقطب تفكيرنا في هذه المقالة :

الادب : الشكل الفني الذي تؤدي فيه المعاني والمشاعر ، او اساليب التفكير والتعبير .

العربي : تحديد الهوية القومية للادب .

المستقبل : اي مصير امة العرب .

الفاعلية الادبية : اي قدرة الكلمة على تغيير الواقع .

الفاعلية الادبية :

وبما ان الفاعلية الادبية هي الهدف المنشود ، فلا بأس من ان نبدأ بتقصي معانيها لان الاندفاع في تحقيقها او المبالغة في تقويمها يؤديان الى افدح انواع الضرر بالادب واثره على السواء . فقد ارتفع بعيد هزيمة حزيران شعار : « الكلمة رصاصة » . واعجب هذا

واللغة المفضلة في جميع المواقف والانواع الادبية هي لغة الحياة المعاصرة دون سواها (11) .

ولغة الكتابة المعاصرة طوعت لانواع عديدة من الادب المستحدث : كالمسرحية والرواية والقصة .. ويستطيع الاديب ان يستخدمها دون غضاضة في جميع اعماله الادبية فيما عدا الجانب القائم على الحوار ، لاننا لا نألف الحوار ولا نستسيغه الا اذا قرأناه كما تعودنا سماعه ، اعني باللهجة العامية . وتفصيح العامية او المساس بشيء من تركيبها يعني الاخلال بالدلالات الاجتماعية والنفسية والرمزية التي اكتسبتها خلال تداولها اليومي بين الناس . ومن هنا نجد كثيرا من الفتور والضعف في الحوار الذي يصطنع الفصحى في اي عمل من الاعمال الادبية .

وكتابة الحوار بالعامية لا يباعد بين اللهجات في الوطن العربي ، بل العكس هو الصحيح ، فكتابة الحوار بالعامية في بعض الاعمال الادبية يهدم الحواجز القائمة بين اللهجات المختلفة ، ويغذي ثروتنا اللغوية المعاصرة ، ويبرز اوجه الشبه العديدة الموجودة بين مختلف اللهجات في الوطن العربي .

الخلاصة :

يتضح لنا من القضايا اللغوية التي عرضناها بايجاز ، ان مشكلة اللغة العربية سواء أكانت في الادب او العلم او الحياة تنحصر في جمود الفصحى القديمة عند خصائص ومواصفات حددها القدماء ، والزموا بها جميع الناطقين بالعربية في عصرهم والعصور التالية ، وكأن اللغة لا تبدل ولا تتطور .

وما دمنا نقف بتفكيرنا اللغوي عند الحدود التي وضعها القدماء ، فمشكلة اللغة العربية في الادب وغيره تظل قائمة ، وتتفاقم يوما بعد يوم ، لان اي لغة في العالم تتطور بتطور الامة ، وتواكب مسيرتها الفكرية والوجدانية واليومية ..

والامة العربية مقبلة على نهضة كبرى في جميع الميادين ، ولا بد ان تطوع اللغة لحاجاتنا العصرية ، ولا يمكن ان تظل بدوية صحراوية ، حتى ولو سلمنا بأن اصولها الاولى كانت كذلك . فلغات العالم تنتقل من خشونة البداوة الى رقة الحضارة ، ومن التعقيد الى البساطة ، ومن الغموض الى الدقة والوضوح. ولغتنا هي احدى اللغات التي ينطبق عليها ما ينطبق على جميع اللغات في العالم .ولا خوف عليها من التطور والنماء ، بل الخوف كل الخوف من الجمود المؤدي الى الزوال .

بقي ان نقول ان تطور لغتنا رهين بتطور الفكر الخلاق المبدع في امتنا ، وسوف نشعر بحاجتنا الماسة لتطويرها كلما خطونا خطوة في مدارج الرقي والحضارة والعلم والادب .

والله نسأل ان يلهم امتنا التوفيق والسداد .

د . عدنان يوسف سكيك
جامعة الفاتح ـ كلية التربية

(11) من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ـ د . محمد خلف الله احمد ـ ٧٩ وما بعدها .

الشعار سيل من الادب الملتهب بالحمم والبراكين والجماهير المنفعلة باحلام التحرير .. ومع ذلك كله ، فقد ظلت الكلمة كلمة والرصاصة رصاصة . لا تغني احداهما عن الاخرى ولا تحل محلها ، حتى في الاستعارة او المجاز . تطلق الرصاصة على هدف قريب فتخترقه على الفور . ولا كذلك الاثر الادبي بل أجرؤ ان اقول ان الادب بعكس الرصاصة : الرصاصة تخترق الهدف القريب ، وكلما اقترب الهدف كانت الرصاصة اوقع أثرا وابلغ اصابه ، اما الادب فيقل فعله كلما كان هدفه قريبا . تخيلوا قصة يدعو كاتبها القراء الى الخروج في مظاهرة بعد اسبوع من تاريخ نشرها ، بل ارجعوا بذاكرتكم الى آلاف ـ القصائد الحماسية التي الفيت في المظاهرات من اربعين عاما الى اليوم .. كلها ضاعت هباء . لم يبق لنا منها اليوم شيء .لا احد يجد في نفسه دافعا الى مراجعة الصحف التي نشرت فيها تلك القصائد . السبب ؟ انها تعالج هدفا فوريا ، مباشرا ،ومحدودا . والامر بطبيعة الحال لا يقتصر على ادب المظاهرات الوطنية ، بل ينسحب بصورة اشمل على ادب المظاهرات العاطفيه : الادب الذي يسجل ارتفاع حرارة صاحبه من العشق او ارتفاع ضغط الشاعر من ساق او فوام .

في كل ذلك نجد الادب يخطيء الهدف أن كان هذا الهدف قريبا منه او محددا امامه . اما ان كان الهدف بعيدا او شاملا فهناك تجد الادب يفعل فعله في الضمائر يفيمها ولا يقفدها ، يهزها ويحركها ،ثم ما يلبث أن يحمل جيلا بأكمله الى تحقيق الهدف المنشود والمرمى البعيد . المثل على ذلك الادب الروسي في منتصف القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . هذا الادب جعل همه الابحث في مستقبل روسيا وصورة الانسان الروسي الذي يطمح الى التغيير او يقوم به ان صوابا وان خطأ . قدم لنا كل ذلك على صورة أزمة الضمير بعد الفعل : « الجريمة والعقاب » و « انا كارنينا » ـ على بعد ما بينهما في النظرة الطبقية والدينية والسياسية ـ تصوران الفعل وازمة الضمير عند جيل لا يهتم بتغيير واقعه الشخصي بقدر ما يهتم بتغيير مصير الانسان او ضميره : الانسان هنا ، حصرا ، الانسان الروسي في المستقبل . فالمستقبل والضمير هما اتحدث اللذان يعنيان مجال الفاعلية الادبية ، وقدرها على التغيير .

المستقبل العربي :

لان هذه الامة بدأت بداية واحدة فانها ذات مصير واحد . النهاية واحدة لان البداية واحدة . اذا سقطت الاندلس بفعل القوى الصليبية ، فان هذه القوى ذاتها سوف تهاجم سورية او فلسطين او مصر . اذا اجتاح التتار العراق فسوف يواصلون سيرهم لاجياح سورية وفلسطين . واذا حكم العثمانيون العراق وسورية فان مصر وليبيا وبلاد المغرب واقعة تحت حكمهم لا محالة . كذلك يصدق هذا على العصر الحديث : حكمت فرنسا بلاد المغرب العربي فسقطت سورية في يدها . وحكمت بريطانيا مصر فاستولت على فلسطين والعراق .

والتجربة الاكثر معاصرة والاشد خطورة تجربة المشرق العربي مع الغزو الصهيوني : ما ان كون الصهاينة لانفسهم رأس جسر على شواطىء فلسطين حتى تغلغلوا الى قلب فلسطين واستولوا على سواحلها ثم اتاحوا شمالا وجنوبا نحو سوريا ومصر . وهم في هذا الاسبوع بالذات يقيمون القواعد العسكرية في جنوب لبنان وينتحلون لانفسهم مزاعم العالم الغربي منذ القرن العاشر الميلادي في حماية الاقليات غير المسلمة والاقليات غير العربية ـ حماية هذه الاقليات من العرب ، وحماية الاماكن المقدسة من المسلمين . وهذا زعم ان لم يجد من يوقفه عند حد فسوف يمتد ليشمل الفرق الاسلامية المتعددة من شيعة او سنة أو علويين او وهابيين .. الخ .

كما ان الغزو الصهيوني يتصدى للعرب بالمزاعم الاستعمارية القديمة : تارة يريدون منابع المياه ، وتارة يريدون حدودا طبيعية ، وتارة يريدون مجالا حيويا لاقتصادهم وتجارتهم ، وتارة يريدون ان ينشروا المدنية والتنور في ربوع البلاد العربية المتخلفة .

وهم في كل تلك المزاعم يستخدمون كامل قوتهم لتنفيذ الهدف بعد انهدف . يركزون ثقلهم على منطقة في دولة مجاورة فيحتلونها ،فلا تجد الدولة الاقليمية من نفسها القدرة على مجابهة اسرائيل ، ولا تمكن الارادة العربية مقابل ذلك من ان تتصرف كقوة موحدة .وبذلك يضيع الحق العربي وتصان المكاسب الصهيونية وتتدعم مما يتيح لها ان تهيىء نفسها لقفزة اخرى تحقق بها مزعما آخر باطلا ـ ولكن اسرائيل تعتمد على المبدأ القائل بأن حق القوة ينقلب مع الزمن الى قوة الحق . فالاراضي العربية التي مضى على احتلالها ثلاثون عاما اصبحت من حق اسرائيل ، أما الاراضي التي مضى على احتلالها عشر سنوات فهي موضع نزاع دولي ـ ولكن اذا انقضت ثلاثون سنة اخرى وما زالت محتلة سرى عليها مبدأ انقلاب حق القوة الى قوة الحق ، وهكذا ..

الحل يكون طبعا بالوحدة والتصنيع والاشتراكية .. صار هذا مفهوما ولكن اخشى ان نكون نحن الادباء مقصرين ، بل مهملين للمناداة بهذا الحق .

رأينا ان دور الادب يكون في أوج فاعليته اذا تصدى لهدف بعيد وشامل . واي هدف ابعد واشمل من صوغ الانسان العربي لكي يكون انسانا يعبر عن قوميته في كل لحظة من لحظات حياته وفي كل ملمح من ملامح وجوده ! ولكن كيف يمكن للادب ان يساهم في صوغ الانسان القومي ؟

الادب والموقف القومي :

ثمة في الادب المضمون والشكل ، يؤلف بينهما في اغلب الاحيان الموقف . لان الموقف يجسد المضمون ويستدرج الشكل ، يمريه ولا يمليه . فينبلج شيئا فشيئا . يتآلف الموقف القومي في جوهره من التفكير بالامة ككل . حين يفكر الشاعر بالاسير العربي فانما يرى الامة كلها مأسورة . وعندما يتصور القصاص لحظة يصارع البطل فيها فقره فانما يتصور صراع الجماهير العربية المعدمة مع الفقر، وفي اي وقت يخطط الروائي شخصيات روايته وهم يندفعون الى تغيير واقع بعينه فانما يندفعون الى تغيير الواقع العربي باسره، وما ان يتولى الناقد مناقشة قصيدة مهما كانت عاطفية فانما يسعى الى بلورة رؤية قومية للحب ، ولا بد لهذه الرؤية من ان تضع في حسابها ان للتراث رؤية او رؤى قومية متميزة للحب .فالادب العربي الفرد دون آداب الامم الاخرى بظاهرة التعبير عن الحب العذري مثلا ، حيث يتفرد المحبوب ويشف ويستوعب شخص العاشق وعالمه . كما شارك الادب العربي آداب الامم الاخرى في التعبير عن الحب الفاحش او الحب العادي المألوف بين البشر ، او الحب الوهمي الذي تتخلله الخوارق ويشارك فيه الجان سعيا للقاء الحبيبين او التفريق بينهما . كذلك يمتد الصراع مع الفقر ليشمل الحلول التي وضعتها الخلافة او العقبات التي اثارتها في وجه الانصاف ، مثلما يشمل الحلول التي سعت جماهير الفقراء العرب الى فرضها على السلطة القائمة والصراعات التي خاضتها هذه الجماهير المعدمة لتصل الى حقوقها . وبالمثل ، فان لدينا تاريخا طويلا مديدا في دفع الغزاة ـ هذا التاريخ يسمى القتال ضد الاعداء الغرباء عن العروبة والاسلام ، « الجهاد في سبيل الله » . وارجو الا تفزع هذه الكلمة احدا . فان صيحة الجهاد « الله اكبر » تختزل في ثناياها بطولات اولئك الذين قتلوا ليحافظوا على عروبة الارض وعروبة الهوية القومية .. قتلوا لنبقى عربا على ارض عربية : وهذا هو معنى الاستشهاد في سبيل الله ، معناه ان نعيش او ان نموت في سبيل بقاء الامة العربية وديمومتها . يموت البعض ليبقى الاخرون موجودين في التاريخ الانساني وفاعلين فيه .

من سجل الجهاد والكفاح والنضال ، في سبيل العدالة والبقاء، يستمد ادب المستقبل العربي شكله ومضمونه ، يستمد مواقفه ويمد نظرته تطلعا الى عربي المستقبل ، العربي الذي يصون مستقبل امته باقامة دولة العرب الموحدة المصنعة الاشتراكية . ادب المستقبل هو مستقبل الادب العربي بل هو مستقبل الانسان العربي ، بل هو مستقبل الحياة العربية ، ان كانت سوف تستمر او تتوقف مرة والى الابد . كل شيء يتوقف على الوحدة . التصنيع يتوقف على الوحدة ، رهن قران المال العربي بالايدي العاملة العربية والخبرة العربية ، ولايمكن ان يتم الا بالوحدة. لان الصناعة الخفيفة تحتاج الى اسواق استهلاكية، ولان الصناعة الثقيلة تحتاج الى رساميل واسواق لا توفرهما الا دولة الوحدة .

ادب المستقبل العربي هو مستقبل الادب العربي لان التحرير المنشود لا يقوم الا بالصناعة المنشودة ، فالامة التي لا تصنع سلاحها لا تصنع معركتها . ونحن نتوهم كثيرا اذا ظننا ان حالة الامة في نهاية هذا القرن افضل من حالتها في بدايته . والسبب في ذلك ان هذه الامة لم تخط نحو الوحدة خطوة الا تباعدت عنها خطوات .فقد بدأ الاستعمار بتاسيس الحدود السياسية ، ثم جاءت العهود الوطنية البرجوازية بعد استقلال فاضافت الحدود الاقتصادية الى الحدود السياسية ، واخيرا جاءت العهود التي تسمي نفسها ثورية فجعلت من الحدود السياسية ـ الاقتصادية سدا لا يمكن اختراقه حين دمجت الحدود الاقتصادية ـ السياسية بالحدود الاقليمية . صار لكل كيان عربي ايديولوجيا اقليمية تفلسف ماضي العرب ومستقبلهم ، لتثبت زعمها بان صنع الوحدة العربية لا يمكن ان يتم الا ضمن فباركها الفكرية .

وتمادت هذه الايديولوجيات الاقليمية لا في السطو فقط على جزء من الوطن العربي هو الاقليم الذي تشعش فيه وتسيطر عليه وانما فرضت حظرا على الفكر العربي والضمير والخيال العربيين:

ايها الاخوة ،

نحن عرب باعتبار ما مضى : يسمحون لنا ان نقرأ الشنفرى والبهاء زهير ، لكن الديوان الذي يصدر في الجزائر لا يمكن ان يصل الى اليم ، والرواية التي تصدر في تونس لا يمكن ان نعرف عنها شيئا في دمشق ، والادب الذي ينتجه العراق يظل في العراق تماما كما ان الادب الذي ننتجه في سوريا او ليبيا او الاردن يظل حبيسا في الاقطار التي انتجته .

يزعمون ان السبب سوء التوزيع او قوانين تحويل العملة اوغلاء الورق .. هذا كذب صريح ايها الادباء : العزلة السياسية قرار سياسي بانتاج ادب اقليمي محلي سخيف . وهذا ما ظهر واضحا منذ عشرين سنة الى الان . اننا نجتمع الان ونحن نشكو من العزلة الثقافية ومن تدهور الادب العربي . والسبب القاطع في ذلك تشجيع الكيانات الاقليمية والايديولوجيات الاقليمية للادب المحلي . لقد انعزل الادب الاقليمي وتقوقع فانتج ادبا راكدا آسنا كريها يتسم بقصر النظر وضبابية الرؤى وقزمية النماذج المحلية التي يقدمها الادب في السبعينات خاصة .

اننا ، نحن الادباء المكتهلين ، خريجو مجلة « الاداب » يوم ان كانت مجلة الوطن العربي باكمله . كنا نقرأ فيها الادب العراقي والادب المصري والادب السوري والادب المغربي ـ وكانت هذه التيارات الادبية تتفاعل ، وكانت الرؤى العربية تتفاعل فتنتج ادبا عربيا صحيحا معافى ، فلم يكن البياتي شاعرا عراقيا ولا القباني شاعرا سوريا ولا الحجازي شاعرا مصريا . كانوا شعراء العرب وكفى . اليوم لا يتاح للشبان مثل هذا التفاعل لان الايديولوجيات القطرية افرزت على صورتها ومثالها دور نشر وتوزيع مثلما افرزت على صورتها ومثالها ادباء فصلوا انتاجهم على قدها الممسوخ وقامتها القزمة . الانكفاء على الذات ليس ظاهرة ادبية وانما هو ظاهرة انتجتها الايديولوجيات الاقليمية والحدود الثقافية التي فرضتها على الجيل الذي لا يبلغ الثلاثين من عمره بعد . وليس من المبالغة في شيء اذا قلنا ان كل ما ينتج في ظل الايديولوجيات الاقليمية سوف يكون سلبيا ، انهزاميا ، متقوقعا ، انعزاليا .

* * *

« مهلا ، وعلى رسلكم ايها العرب » ـ هذا ما سوف يقوله الادب المستقبلي العربي لاصحاب الايديولوجيات الاقليمية ، ولاصحاب السلطة في الكيانات الايديولوجية الاقليمية ، وللادباء الصغار الخانعين ضمن الكيانات والايديولوجيات الاقليمية ، وللهزائم التي تتساقط كالمطر على الكيانات والايديولوجيات الاقليمية ، وللتاريخ الاقليمي المجيد الذي تسطره لكل قطر فبارك الايديولوجيات الاقليمية المعزولة بين التخلف والصهيونية .

« مهلا ـ وعلى رسلكم ايها العرب » ان طريق المستقبل العربي هي طريق الادب المستقبلي العربي ، الادب الذي يعلو على الثقافة الاقليمية ، ويتجاوز الحدود الايديولوجية ، ويسمو على النماذج المحلية فيوسعها ويرفعها بقوة المصير العربي الواحد الى مرتبة النماذج البدئية العربية الاولى التي سوف تبشر بالرؤيا القومية ، بالانسان العربي الكلي ، الانسان الذي يفكر بالامة كلها ، ويجد خلاص ازمته في خلاص الامة كلها .

ان الفكرة العربية في صميم طبيعتها فكرة سلفية او فكرة مستقبلية .

فنحن ايها السادة ـ عرب باعتبار ما كان ، ونحن ايضا عرب باعتبار ما نريد ان نكون اما الان فنحن خليط غريب من كيانات سياسية مفتعلة تحاول الايديولوجيات الاقليمية ان تزعم لها معنى وترسم لها دورا تبين انه خال من اية فعالية او مغزى .

وانا في هذا المقام لا اشجب فكرة الايديولوجيا بحد ذاتها ، لكنني اشجب الايديولوجيا الاقليمية بقدر ما ما تبرر الكيان الاقليمي اوتكون اداة مطواعة لتسويغ الانعزال عن المصير العربي ، او وسيلة للانفلاق الفكري والحيلولة دون التفاعل مع التيارات الفكرية العربية التي تسعى الى ان تصب في نهر الوحدة العظيم . في هذا المجال يفعل الادب العربي الحديث فعله في المستقبل ، ويرسخ في الضمائر صورة الانسان العربي الذي يخلق وحدته القومية ويصون بقاء الهوية العربية على الارض العربية . وقد كان الادب العربي على الدوام معبرا عن كفاح الامة المظفر من اجل بقائها وتطورها .

دمشق — محي الدين صبحي